المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة يحتفل بسبعينية عفيفي مطر

عبد المعطي حجازي: نحتفي بانفسنا والشعر الذي يتجدد مع كل قصيدة

القاهرة ـ «القدس العربي»

ـ من محمود قرني:

احتفلت لجنة الشعر بالمجلس الاعلى للثقافة بسبعينية الشاعر «محمد عفيفي مطر»، وعلى مدار يوم كامل بدأ في الصباح وانتهى في المساء تضمنت الاحتفالية عددا من الابحاث والدراسات والشهادات والقراءات الشعرية.

وقد جاءت الاحتفالية ـ في معظمها ـ خالية من الحضور الرسمي رغم ان المجلس الاعلى للثقافة هو راعيها، فحيث كان من المقرر ـ حسب البرنامج المعلن ـ أن يحضر حفل الافتتاح الدكتور جابر عصفور الامين العام للمجلس، اعتذر نيابة عنه الشاعر محمد ابراهيم أبو سنة مشيرا الى ان ثمة ظروفاً حالت دون حضوره، وتحدث الى جانب أبي سنة كل من الشاعر احمد عبد المعطي حجازي والناقد والكاتب محمود أمين العالم.

وفي كلمته الافتتاحية قدم ابو سنة تقديرا خاصا من لجنة الشعر لعفيفي مطر باعتباره احد رواد الشعرية الحديثة، وقال: قدم مطر عددا من الكائنات الشعرية التي تصطرع بالواقع والخيال والاسطورة، وهو شاعر استطاع ان يرسم ملامحه لا ملامح أنبادوقليس في كل مشروعه، ولم يتوقف عن التجديد والابداع والجسارة سواء كان على مستوى الموضوع أو الخيال، نحن نعتز به وبتأثيره لدى جيل السبعينيات، ومن تلاهم من الشعراء، واختتم أبو سنة تقدمته بالقول ان الاحتفال بعفيفي مطر من لجنة الشعر يعد تكريما من لجنة الشعر للحرية والجمال والشعر، وما أحوجنا هذه الايام للدفاع عن الشعر.

اما الشاعر احمد عبدالمعطي حجازي فقد قدم كلمة قصيرة محكمة ومحتفية اشد الاحتفاء بعفيفي مطر قال فيها: أيها الشاعر الكبير نحتفل اليوم ببلوغه السبعين اي نحتفل بأنفسنا وقد بلغتها مثلك، أو مثل فاروق شوشة أو أبو سنة، أقصد الذين جايلوك والذين سيقرأونك في الايام القادمة، اننا نرى انفسنا فيما يقوله شعراؤنا، ننصت الى انفسنا وخطرات احلامنا في سطوره وإذا كنا نحتفل بهم اليوم فذلك لاننا نحدق الى اجمل ما فينا.

ومطر شاعر يمثل هذا المعنى ويصوره في أحسن صورة، يمثل جيله ولغته وشعبه، شاعر يجدد نفسه كلما تعلم قصيدة جديدة، يجدد الشعر ويجدد الزمن، يكتب الكلمة بحقها، تعلم من الفلاحين المصريين الذين انحدر من أصلابهم ان الكلمة هي الوحي وهي النهر والطمي والجميز والصلصال باعتبارها أرواحا فكلمات مطر ليست كلمات منتزعة من عالمها، انما هو ينقل لنا العالم بروائحه وأشواقه.

واختتم حجازي كلمته قائلا لمطر: ايها الشاعر الكبير انك تعلم ما آل إليه الشعر والفكر والكلام، نحن اليوم أحوج إليك اكثر من اي وقت مضي.

اما الناقد والكاتب محمود امين العالم فقد قرأ العديد من المقاطع الشعرية من قصائد مختلفة وتوقف طويلا امام قصيدة «عندما كنت شاعرا» من ديوان ملامح الوجه الانبادقليسي، والتي يبدأها بقوله «لو كنت شاعرا يا سادتي القراء، لاغتسلت احرفي في قرارة الاشياء».

ويقول العالم ان القصيدة تأتي ـ مضمونيا ـ عكس منطوقها المباشر، فهي ليست مجرد كلام فصيح ولكنه يمثل تحديا ومرورا بالضرورة بين المزالقة الجامدة ولا يعني هذا تخليا عن القيمة الجمالية. ويضيف العالم: إن مرجعية الفلسفة الاشراقية التأملية تبدو ظاهرة للعيان في العديد من قصائد الشاعر، واضاف ان مطر شاعر فيلسوف وهو اقرب في تراثنا العربي الى ابي العلاء المعري وفي الأدب الغربي الاقرب الى ع غوتة.

وقد تلا ندوة الافتتاح ندوة نقدية أدارها الشاعر عبد المنعم عواد يوسف، وتغيب عنها الناقد والكاتب إدوار الخراط والدكتور محمد عبد المطلب وتحدث فيها عدد من الباحثين والنقاد بينهم الناقد عبد الناصر حسن، ومحمد سعد شحاتة ووليد منير، وفي بداية الجلسات المسائية عرض بالقاعة الرئيسية للمؤتمرات بالمجلس الاعلى للثقافة الفيلم التسجيلي الذي أخرجه الشاعر علي عفيفي عن محمد عفيفي مطر، وعقب الفيلم تحدث محمد عفيفي مطر عن تجربته وألقى شهادة مطولة عنها، حيث قدمه الشاعر محمد محمد الشهاوي نيابة عن الشاعر حلمي سالم الذي كان موجودا باليمن وكان مقررا ان يدير الامسية.

وفي شهادته استعرض عفيفي مطر حياته منذ لحظة ميلاده على ترعة «النعناعية» بقرية رملة الانجب بمحافظة المنوفية، مرورا بالمؤثرات المهمة في حياته، وقال مطر:

«انتظمت حركة الدائرة الاولى في: مجمرة البدايات، الجوع والقمر، من دفتر الصمت، يتحدث الطمي، وهي الدواوين التي تشكل بطاقة تعريف أولى بنفسي وأهلي وظروف ولادتي الشعرية بين الارض والنهر ومسلمات الحواس الخمس ومعطيات التعرف المباشر على معاني الوجود في عالمي، وتأسيس ملامح ماهيتي وهويتي عند افتتاح القول، وهي التي ستنضح منها وتمتد انساغ وعروق لا فكاك منها طوال حياتي، تنقيبا ونقضا وعودا على بدء، إلحاحا واكتشافا وتوسعة لرقعة الرؤية والتأمل ومحاولات الاعلاء الدائبة الى آفاق المعنى، نشرت الدواوين المذكورة كغيرها من الدواوين نشرا عشوائيا حسب مقتضيات الحصار والحذف والمطاردة والمتاح من فرص النشر خارج مصر، والديوان الاول لم ينشر إلا في عام 1994 بعدما يقارب الاربعين عاما من كتابته.

ويضيف مطر: في حركة الدائرة الاولى كانت القراءات المتسعة تجعلني اشعر بالانتماء لعائلة الكلام الجميل وانتسب لمجامعها المتلاطمة انتساب صاحب الحق في الجدل والتأثر والنقض والمشاغبة، في لوامع تتشظى هنا وهناك من التراث المصري القديم والثقافة الاغريقية والتراث العربي ومدارس الجدل والتفلسف والتصوف الاسلامية، على أرضية ومهاد شاسع من التراث الشعبي من خرافات ومواويل وملاحم فدخلت في معمعة التأويل وإعادة القراءة لكل ما اعرف، في ظل سؤال باطش غلاب حول السلطة التي ازدادت فداحة كراهيتي لها ولشخوصها وتقاليدها وممارساتها، لا في زمن محدد، بل منذ الملوك الآلهة حتى عسكري المرور «أبو شلن»، ومن قتلة سقراط وهيباتيا حتى قتلة سيد قطب، ومن حلف التعصب القومي والعنصرية عند أرسطو ووحشية السيناتور الروماني ومحاكم التفتيش ووحوش فرسان الصليب حتى مجازر عصبة الامم المتحدة والأمم المتحدة، ومن الدم النازف السيال من صفحات التوراة حتى مجزرة الخامس من يونيو، إلخ.

ويضيف مطر: كان السؤال الباطش المتوحش الذي تتحول كل اجاباته الى اسئلة أشد هولا، يحرمني الهدوء والنوم ويشوش على القصائد ويدفعني من صراخ مباشر فج الى فظاظة السخرية الكئيبة الى اليأس المقهور من كل ما أرى وأسمع الى نزوع انتحاري في الصدام، وكانت تجليات هذه المكابدة القاسية في الدواوين الأربعة: ملامح من الوجه الأنبادوقليسي، رسوم على قشرة الليل، كتاب الارض والدم، شهادة البكاء في زمن الضحك.

ويردف عفيفي مطر في شهادته قائلا: كانت انتفاضة الطلبة والشباب في العالم عام 1968 غمامة رفرفت في قلبي بطهارة الينابيع ودهشة الاسئلة وعنفوان التحديق البكر في كل شيء من جديد، كانت لحظة من الغضب الملهم والغنائية الكونية تعيد سبكي وتنفخ في روحا

محمد عفيفي مطر (القدس العربي)

كالبعث من بين الأموات، وتؤجج نيران الشاعر ـ الملك ـ الملهم المشتعل في رمادي، فكانت بدايات الدائرة الثالثة بديوان «والنهر يلبس الأقنعة»، وهو الفاتحة الاولى لعنف الطيران الحر في أجواء الشعر والفلسفة والموسيقى والتصوف، وعنف الغوص في حقائق الأمة وتجليات حياتها وحضارتها المكنونة واحلامها التي لا تنهزم إلا لتفتق عنها أكفان الوقائع والمرحليات، واتسعت خطاي في «باعية الفرح» بالخيال والتجربة والتأويل، وصولا الى شد الوتر الى القطع وتحطيم المعزف عند مجانين النغم في «أنت واحدها وهي اعضاؤك انتشرت» الذي استنزفني وأبهجني وتركني معتصرا منهكا حتى ظننت انني لن أقوى بعده على ورق أو كتابة، وظللت خمس سنوات أهدىء من انتفاضات جسدي كأنني عدوت عمري كله لأكتبه، وأتملى دبيب الراحة والسكون بعده، حتى اغلقت هذه الدائرة بديواني «فاصلة ايقاعات النمل»، ووضعت على هامش هذه الدائرة ديوانا يكاد يكون رصدا وقائعيا وبيانا مقتضبا حول تجربة الاعتقال والتعذيب في أقبية لاظوغلي، وكأن السلطة أبت إلا أن تكون مصدقة لما تقدم من سالف الكراهية المبدئية التي لا شفاء منها.

ويقول مطر في ختام شهادته: لقد كانت السنوات الأخيرة على خلاف ما يقوله العرب عن العشر الفاصلة بين الستين والسبعين: دقاقة الرقاب، لما يتوالى فيها من وهن الشيخوخة وضعف الجسد والذاكرة وخمود الروح، فقد كانت ـ رغم كل شيء ـ سنوات فتح من البهجة العجيبة بالكتابة لم أعهدها من قبل، وفي النهاية يقول مطر: في تلويحة الوداع اقول: حياتي مغسولة بعرقي، ولقمتي من عصارة كدحي وكريم استحقاقي، لم أغلق بابا في وجه أحد، ولم أختطف شيئا من يد أحد، ولم اكن عونا على كذب أو ظلم أو فساد».

وبعد ان انهى مطر شهادته قدم الشاعر محمد الشهاوي الشعراء الذين ألقوا عددا من قصائد عفيفي مطر، حيث قرأت الشاعرة «شيرين العدوي» قصيدة درعية مديح وقرأ الشاعر سماح عبد الله الانور قصيدة «امرأة ما لوقت ما».

ثم قرأت الشاعرة سهير المصادفة جزءا من قصيدة «أنت واحدها وهي اعضاؤك انتشرت»، ويبدو أن سوء الإلقاء الذي بدا عليه معظم الشعراء دفع الشاعر فاروق شوشة الى إلقاء قصيدة بصوته لمطر، مؤكدا على ان صعوبة وخصوصية تجربته تجعلان قراءته عملا صعبا، لذلك فهو حسب رأي شوشة الذي يصلح لقراءة شعره، ومع ذلك قرأ كاتب هذه السطور قصيدة مطر رباعية الفرح، وأعصم نفسي بالطبع من الحكم على من قرأ لمطر في هذه الامسية حيث كنت واحدا منهم.

قـــص

نزهة مع فالح قبل الفجر

عبد الأمير الركابي*

■ فعلوا كل ما ينبغي من تكريم لذكراه، وخلال ايام، بحثوا بين المسارب المعلومة لهم، عن مكان لائق لهذا القتيل، الى ان روت نوعة المياحية، قصة فالح المنسية. ولعل الموت وسط الماء هو الذي ذكرها بتلك القصة، فلقد اخذوه مع الفجر الى هناك، الاخوة خمستهم، والاب يمسك بيده عصا طويلة يابسة، ويتحرك على مقربة منهم، ويلقي الاوامر بصمت.

لم يوقظوه، بل قيدوه وهو بين الغفوة والصحو، وحين تحرك مقاوما، خاف الاب من ترك الاثار، فمنعهم من ان يربطوا يديه بالحبل، قال لهم:

ـ امنعوه فقط من الصياح، نريده غرقانا... ضعوا شيئا في فمه، يمنعه من ايقاظ الناس. توقفت نوعة المياحية لتضحك ضحكة لا معنى لها وقالت مترددة:

ـ لا ادري اذا كانت القصة تشبه قصة الضابط الانكريزي...

وتذكرت ما قاله محيسن ابن سدخان الشاعر، عن النزهة، علق وهو يعدل عمامته الخضراء فوق راسه، وعيناه مليئتان بالدموع، وقال:

ـ لو طلب مني ان اضع لها اسما، لكنت احببت ان اخفف قسوتها بما هو متيسر، كنت سميتها ـ نزهة مع فالح قبل الفجر». ولم تفهم ما معنى «النزهة» بالضبط، لكنها ظلت تظن انها تعني الموت في الماء، لهذا قالت حين سمعت قصة الضابط الذي سقط مع الغالة في الماء:

ـ هاي نزهة...

وحين سألوها مستغربين..قصت عليهم القصة....

رأى فالح من مكانه حيث ينام على الارض وسط ارضية الدار، خيالا تحرك في قلب الجمالي، وحين اخذوا يديه ليجمعوهما خلف ظهره، تركهما لهم بسلاسة، وظن انه قد احب ملمس قيود القماش على معصميه، لم يزعجه ايقاظهم له في تلك الساعة من الليل، ومن تحت الكوفية المدسوسة في فمه، كان يريد ان يبتسم، وكله اقتناع بان الشيخ الواقف في قلب الجمالي، سيرى ابتسامته ويرد عليها، او يحتفظ بها ذكرى لما بعد الموت. حين خرجوا به من الدار، رافقهم جمع من الوز يمشي صامتا، قبل طلوع الفجر باتجاه البركة المحاذية للدار، كان ذلك اخر ما رآه قبل ان يلفوه ويضعوه فوق الحصان، لم يعد يرى شيئا، لكنه شم رائحة الحصان وعرفه، وحين هموا بالمسير، رأى الشيخ الوقف في الظلمة وسط الجمالي، حاضرا في خياله مرة اخرى، مشى الاخوة الخمسة قبيل اول الفجر، نحو طرف الهور، متخذين طريق البساتين الوعر الخالي، وبين القصب والبردي. انزلوه بهدوء وهم يتهامسون، ونزعوا وثاقه... اول ما قاله لهم:

ـ كنت ادري....هذا يوم وذاك يوم..

لكنهم لم يعلقوا، ولا ارادوا ان يفهموا قصده، فقد كانوا منشغلين بصناعة سد من اجسادهم، نصبوه امامه، واخذوا يدفعونه نحو الماء، صاح فالح بالاب بصوت خفيض، كأنه يتواطأ ضد نفسه متجنبا الفضيحه:

ـ عمي يا ابو وضحة.. هذا موشان الرجال، أنا ضيف ومأخوذ على غرة، وانتم ستة وانا وحيد.

سعل الاب سعلة جافة كانت جوابه الوحيد، على اعتراض متأخر، سمعه ابو وضحة، فشم في ما قاله، طرف سخرية وغلا باردا.

تقهقر فالح يخوض في الماء، متراجعا الى الخلف، فأحس دفئا ناعما يصعد من اقدامه ليغمرجسده كله، بينما سدهم الخماسي يتحول الى قوس، وقف عند طرفيه عباس وجمعة، عرفهما بقوامهما، لان الاول اقصرهم، والثاني انحفهم، وقررخلال لحظة ان يقتل القصير اولا، خطرت له الفكرة، بعدما التفت التفاتة سريعة، ووجد الطريق بين كتل القصب والبردي، يضيق، بعد ان يشخص فجأة، ركن حاد من عيدان القصب المرصوص والعالي الى اليمين، يقابله فراغ، جعلهم يتدافعون ليمنعوه من السير بمحاذاة السد القصبي المنتهي قريبا، عند التقائه بكتل اخرى، لا تعود تترك سوى مدخل ضيق. فكروا بأنه سيمنعهم من الاحاطة به. وصل الماء الى ما فوق ركبهم، ولانهم يطلون من موقعهم على ما خلفه، تحركوا بارتباك وجلبة، يريدون الوصول قبله الى المسرب الضيق، وبين خوفه من نجاحهم، وتظاهره بجهل مقصدهم، وارتباك جعلهم يتصادمون مضطربين، صاح فالح بأعلى صوته:

ـ عباس

واقترب من صاحبه، كأنه ينوي احتضانه، وبيده قصبه مكسورة، دفعها بطرفة عين صوب حنجرته، واعلى صدره ثلاث مرات، حدث ذلك خلال ثوان، كانت كافية لتعيين القصبة، وكسرها، قبل ان يغرسها في جسد قتيله الأول، تاركا لاخوته الذهول، وللجسد الدور، المرصوص، رعبا سرعان ما تحول الى صراخ مجنون. انتزع فالح القصبة، ليسمع خريرالدم وهو يسقط في الماء، ولولا ان الدفق قد بدا لامعا وقاتما امام عينيه، لظن ان احدا من الموجودين قرر ان يبول وهو واقف، وبغريزة مبهمة صاح:

ـ يا ابو وضحة راح واحد وظلوا اربعة...

وعندها فقط، صدق الآخرون ما رأته اعينهم، وبدل ان يكملوا خطتهم، ويواصلوا قطع الطريق بينه وبين المسرب، التحموا حول الذبيح يتصايحون، بينما كان القاتل يقفز مبتعدا. جفلت مع قفزته، والصراخ، ورائحة الدم، طيور الخضيري والبريهي النائمة في قلب البردي، ولبطت سمكة، تركت على سطح الماء موجة مكبوتة، وصوتا لم يسمعه احد سواه، وقبل ان يهم بالغوص في قلب المسرب الضيق، القى نظرة حزن ثقيلة، نحو كتلة اصحابه، وتذكر وقتها حب وضحة لأخيها المذبوح على يديه، كانت تقول له: ـ سيقتلونك يافالح فاتركهم واذهب.

وقالت له مرة:

ـ خوفي انهم لن يبلغوا عباس، فهو مسكين، قلبه طيب، وخواف.. ولازم يقول لي..

ضرب احدهم بيديه على رأسه وصاح آخر:

ـ لا ابن الكلب.. والله لاقطعك باسناني..

وولول الثالث محتضنا اخاه

ـ ولك ما جيت الا على عباس؟

شعر هو وقتها بنسمة طرية هبت على المكان، وظن ان الليل يبدأ من اوله، كانت الظلمة دامسة، والديكة كأنها نسيت عادتها، ولا ضوء ظهر على امتداد الارض المرتفعة، المقابلة لمكان وجودهم، حتى الروائح توقفت، الا رائحة الماء، واحتباس عطن طيني. تحرك شبح الاب بعصبية، يقابله فراغ، جعلهم يتدافعون ليمنعوه من السير بمحاذاة السد القصبي المنتهي قريبا، عند التقائه بكتل اخرى، لا تعود تترك سوى مدخل ضيق. فكروا بأنه سيمنعهم من الاحاطة به. وصل الماء الى ما فوق ركبهم، ولانهم يطلون يحاولان الوصول اليهما بلا امل، اختارت الاقدار للمشهد، فسحة محاطة بجذور قصب حادة في الاسفل، تجعل الحركة شبه مستحيلة، اراد ان يدفن خصمه الثالث في الماء، تعرف عليه بمجرد ان التصقا، وتقابلت نظراتهما، صاح به:

ـ جاسم... مو إحنا اخوة؟

كان الاقرب اليه، رفيقه في الليالي اذا سطوا، واذا ذهبوا للكاولية، هو يغني، وجاسم يضرب الاصبعتين، كأنه يطلق رصاصا من بين كفيه، حين افلح في امالته على وجهه، وهو يركله بركبته في الخاصره، سمع بكاءه، ودهش من استسلامه اللين، كان متيقنا بان جاسم توقف عن المقاومة، فلم يبخل عليه بالموت، صاح به للمرة الثانية كأنه يبرر لنفسه فعلا من عمل الشيطان:

ـ تريد تقتلني؟... بعد كل تلك العشرة.. ليش.. ليش؟.

وحين رفع يده عن جثته، صاح للمرة الثالثة:

ـ يابو وضحة وهذا جاسم قتلته.. ظلوا اثنين..

وترك الجثة ليقفز بعيدا، بينما لاحت له وقتها زرقة قاتمة، انشقت خلف عتمة الليل الطويل، ورأى خيطا من الدخان يتعالى في الافق، لامرأة مبكرة تخبز في الفجر.

حل الفصل الاخير، فسقط الزمن فجأه، وتعالى نشيد الارض، تراجعت العتمة، وصاحت الديكة، واحتشدت اعماق القصب والبردي، بنهوض الطيوروالاسماك، وتزاحمت بعيدا، اصوات كلاب وثغاء ابقار، وحل على الوجود انكشاف جنوني، كانوا يائسين ومنغمسين في طلب الموت، وقد بددهم الارهاق، وهم يضربون بعضهم وقوفا بالايدي، بلا تركيز، ومن دون رحمة، احد الاثنين المتبقين، ادخل اصابعه في فم فالح، وسحبه من احدى زاويتيه، بكل ما يملك من قوة، فاختل توازن فالح، وسقط وهو يتذكرابن عمه ياسر، قال له:

ـ تعال ندخلك معنا في الجيش، وتترك هذا الطريق...كل لعب وله نهاية..

وعاد يقول له بعد شهور:

ـ يقتلونك يافالح والله يقتلونك..

رد هو عليه وقتها ضاحكا:

ـ لو قتلوني ستكون لعبة خلان.

كم مرة سمعها:

ـ يقتلونك يافالح.. والله يقتلونك...انت ما تعرف ابو وضحة.. ثاره ما يموت..

وهو لا يكف عن الذهاب اليهم، وينصت لما يقال ويصمت بلا رد، الا على وضحة، فقد سمع منها نفس الكلمات تقال بصوت مرتعش، وعيون مليئة بالدموع، كان يحب ان يراها في الحلم، وهي تغوص في البستان الواقع خلف الدار، تجمع المشمش والخوخ الابيض، وهو يحمل قفة الخوص، ويلحق بها كلما ابتعدت بجسدها المنحوت الصلب، كانت اقرب الى تمثال متقن، نزل يمشي. صدرها عارم، وخصرها مفضوخ، بين الصدر والاوراك المدورة، والسيقان الممتلئة برشاقة، يعجز عن اخفائها الثوب، اوالعباءة الملتفة على الجسد باتقان، يفضح حيث يخفي. استدارت نحوه، والقت صوبه نظرة شاردة، فرأى كالعادة، وجهها المأخوذ بسمو خمري، مائل الى البياض، وتابعها، يلاحق حركة تجعل الحسن مثارا للقلق، اراد ان يحتوي تموجها، وازدحام كينونتها الثرة، المتعبة للبصر والروح، كيف يجمع كل هذا الحشد من الاشياء المحيرة، الدلال الخفي، والكبرياء الحنون، الرغبة الطاغية، والحب والابتعاد معا، اللجاجة، والاحتواء بلا قيد، والتعفف الآسر عن التصريح، كل هذا كان حاضرا، لا ينسى ابدا، يضيء حضورها مشعا مع القفز بين السواقي، والانحناء هبوطا نحو الارض، او حين ترفع يدها الى الاغصان، تفحصها وتتملاها، فشعلة الصانع الخفية، المأخوذ بسكرة الخلق وجذوته، سر مشع منها، لم يودع عندها، بل جعلها هي، فصارت. لم تكن في الواقع، اقل بهاء منها في الاحلام، لمرة واحدة، لامس جسده جسدها الممتنع، فأحس مسامها ترقص رقصة، شعت على وجهها، فطفح بنور، لو انطلق ولم تحجبه، لما قويت على رؤيته العيون، اخفضت وجهها واشاحت به، وعيناها تمتلئان دمعا، قال لها:

ـ وماذا يعني الموت؟ ألست اموت اذا ابتعدت عنك؟..

سمعا وقتها وشوشة تعلو مع الريح، آتية من اعالي النخيل، لم يتأخر انقلابها الى هدير عاصف، فأعتم الطريق، ونزلت هادرة، امطار ثقيلة في غير اوانها، انقلبت الى برد هائل الحجم، ظل يضرب زجاج السيارة الامامي، والام تصيح:

ـ ها الله يا الله يا ساتر يا رب..

وتعود لتغمض عينيها، والريح تعول، الى ان وجدوا انفسهم، معلقين فوق القنطرة، ودواليب السياره تصيح، مع صوت ارتطام كتل البرد بحديد السياره وزجاجها، النخيل يعصف برؤوسها الريح والمطر، فيطوحها بجنون، والمكان معتم، حلت عليه الظلمة عند منتصف النهار، قالت له وهي تكتم خوفها:

ـ امي ستموت.. لا... يمكن ماتت...

ومالت لتهزها وهي تردد:

ـ يمه.. يايمه.. يمه..

الى ان صدر عن الام جواب قصير، فتنهدت، وفتحت عينيها وقالت:

ـ خليني انام يا وضحة بعدها الدنيا ليل..

صاحت وضحة، وتكسرت على شفتيها آخر الكلمات:

ـ يا ليل.. يمه الدنيا...

نظرت عبر الزجاج، فالتمع في العتمة مربع ذهبي منعكسا امامها، ظلت هي تتأمله، كأنها تتشاغل به كي لا تضطر للنظر اليه، قال لها فالح:

ـ هذا باكيت الغازي..

فتذكرت انه يدخن تلك العلبة المذهبة، ويرميها امامه خلف مقود السياره، حتى يسهل عليه تناولها وهو في مكانه، خلف المقود، يأخذ منها السجارة، ويرميها الى حيث اخذها ليخرج الزناد من جيب دشداشته العلوي، فيقدحه، ويشعل السجارة، قاذفا كتلا متلاحقة من الدخان، قبل ان يعود لينساها بين اصبعيه.

كانت هي تراقبه، وهو يمارس تلك العادة، فتقارن بينه وبين والدها الذي يخرج علبة تبغه المعدنية، ويلف سجارته، ويبدأ بتدخينها بأناة، ومن دون توقف، كأنه يريد حبس كل قطرة دخان تخرج منها داخل صدره. قارنت طريقته ايضا، بطريقة اخيها جاسم، وبعباس، وبأمها، الى ان غدت تراقب، كل من تراه يدخن، حتى انتهت للاقتناع، بان فالح لا يدخن، بل يلعب لعبة ما. كان يشعل السجائر ليتركها تنطفىء بين اصابعه، دون ان يمجها، ونادرا ماكان يرفعها، بعد اشعالها ليأخذ منها نفسا، وحين ينتبه لها، ويجدها قد انطفأت بين اصابعه، يعود ليشعلها مرة، وينظر اليها قبل ان يرميها بعيدا، مرات. قالت له وقتها شيئا، كانت تريد قوله منذ وقت بعيد، نظرت اليه وابتسمت بسمة غير مرئية، وهمست:

ـ انت تقدر على ترك الدخان.. اظن سهل عليك تتركه..

وقبل ان تكمل، مالت بجسدها عليه، كانت امها النائمة، قد انقلبت عليها، ودفعتها بكلتي يديها فجأة، فانقلبت هي لتسقط بين يديه، رفع ذراعه مرتبكا ليرميها خلف رأسها، فلامست كفه رأس أمها، ورأسها هي تستقر فوق كتفه، وصدرها يلامس صدره، وهو يستدير ليتلقاها كاملة، مد يده بوحي مبهم، كأنه يتسلمها هدية من يد منعمة خفية، فلامس خصرها، وسرت فيه حرارة ابعدت الغيوم والمطر والريح، وظن انه موشك على الطيران او الانمحاء، وتمنى لو انها تحضنه، وتتركه يستريح عندها للحظات، ففعلت، وتركته يغرس وجهه في نحرها، ووسط صدرها، وسمع انفاسها، وبكى بحرقة وهي ممسكة به، تنادي روحه، فيلتصق بها، وهي تشع نورا، صاح وقتها من ولهه، فقبلته...فغفى... صدمت اصابع قدمه كتلة صلبة، داسها بقوة يتحسسها، قبل ان يهبط، ويلتقطها، كانت قطعة حصى صلبة، فاضت عن كفه، وهو ينهض بها، ويقذفها لأعلى اتجاه. سمعها ترتطم بقفص من اللحم والعظام فتدوي دويا مكبوتا، وسقط احدهما على وجهه في الماء، صاح الاخر «لا... ناصر.. قم» وانحنى، كي يرفعه، فارتمى فالح فوقه ليصبحوا ثلاثة، هو يدفع بالجسد الممدد تحته، وهذا يريد رفع الجسد الميت تحتهما، مد الذي تحته مباشرة، يده الى الخلف، محاولا الامساك برقبة فالح عله ينجح في سحبه، ليغوصا معا، فتملص منه، وعاد فضغط عليه بكل ما تبقى له من امل، ظل يفعل، والآخر يحاول رفع يده، الى ان توقف الزمن، وهمد الفجر وانكشف، وهو يصيح بأعلى ما تبقى له من صوت:

ـ كلهم يا بو وضحة.. الخمسه ماتوا...كلهم...

---

* كاتب من العراق

■ مستل من رواية جديدة للكاتب بعنوان « دولاب الـ100 باب وباب».

شاهد في...

الشّعر... متأقلماً مع نقائضه!

خيري منصور *

■ باستثناء عدد من الشعراء العرب لا يتجاوزون السبعة المبشّرين بالقرّاء والمواقف، فإن مئات ممن يعزفون على الوتر ذاته، وقد بدأ يتهرأ تحت اصابعهم وتتهرأ اصابعهم عليه سيظلون يراوحون بين وَهْمَيْن، أحدهما سري لا يشاركهم به حتى ظلالهم، والآخر علني تشاركهم به زوجات وخليلات وأصحاب من طراز أصحاب شعراء المعلقات الذين يتعكزون عليهم وهم يقفون قبالة الاطلال!

ما الحكاية؟ وهل هو عزوف العرب عن ديوانهم وكتابهم الاثير؟ أم هو عزوف الشعراء انفسهم عن لحظة الصدق وتلبية الهواجس المحررة من الارتهان للاسترضاء والمحاكاة؟

ان لدينا الان غابة من الثقافات، وقد انعدم آخر قاسم مشترك حتى حول تعريف الشّعر فهو لعبة كلمات متقاطعة او لعبة تنس بلا شبكة حسب تعبير شهير لروبرت فروست وهو أيضا الخرقة المستعارة من صوفي قرر الاستقالة من المطلق وفتح باب التاريخ بقدمه!

ان من يقرأ مساجلات الشعراء حول الشعر ومهرجاناته لن يتردد في توصيف غير سار على الاطلاق لهذا المشهد التراجيكوميدي والذي يضحك المراقب حتى يستفز قناة الدمع!

حروب دونكيشوتية، وسيوف من نشارة الخشب ودروع من العجين الهش...

لكأن الف شاعر وشاعرة اشتبكوا على آخر زبيبة، بعد أن قرر الخليفة المعاصر ان يستغني عن المديح شعرا، ما دام النثر قد تولى الأمر، واندفع بقوة النفاق الى تلك الصورة التي جسّدها جورج اورويل بشكل يثير الغثيان وهي مئانة الخنزير المتلئة بالحبر....

وعلى الارجح ان من يطرقون هذه البوابة، قد تدمى قبضاتهم وتتهرأ أصابعهم، وما من صرير... فما من أحد يعترف بأن ما يقوم به يستحق نقدا ذاتيا او مراجعة، ما دامت المعصومية بأدنى معانيها الدنيوية قد تحوّلت الى بوليصة تأمين طواها الحمقى تحت آباطهم وناموا ملء الجفون، لكن العالم لا يسهر ولا يختصم حول ما ثرثروا!

ان المجتمعات حتى لو كانت شبه بدائية وتوقفت عن النمر عند طور العذراء، تحزر بالفطرة ما يعبّر عنها وما يهرّب آلامها ومكابداتها وأشواقها، لهذا فهي لا تشيح الا عن زؤان ولا تقرر ادارة الظهر الا ليباب لا يعد بشيء.

فهي لدغت من الجحور ذاتها مليون مرّة، ظمئت حتى تشققت الشفاه ولم تجد غير السّراب وعشقت وقررت الوضوء بالدم لكنّها لم تجد قبلة في زمان انعطبت بوصلاته...

اما الشعر فهو الفصل الأخير في هذه الدراما الصحراوية، بحيث بات أسير اوهام النشر المحدود والقارىء المتخيّل والناقد الدّاجن الذي لا تجتذبه سوى طرقات مغمورة بحوافر السّابقين!

ان معظم ما كتب حتى الآن حول الانتحار الثقافي والأنيميا الشعرية في العالم العربي لم يحرك احدا، ولم يثر رد فعل واحداً يستحق ان يسمى رد فعل، ولو ألقيت هذه الحجارة في بئر لفاضت، او في مستنقع لتحرك فيه التيّار! لكن الكتابة في تعلّقها بالشعر أصبحت جزيرة محاصرة من الجهات الخمس بالرمال... ومن الجهة السادسة باللامبالاة! وأعجب امن المتطامنين الذين ينامون القُرْفُصاء على فراش قصير وَهُمْ يستنكرون علينا وعلى سوانا هذه النبرة الحادية وهذه الكلمات المبرية كأقلام الرصاص والقابلة لأكل نفسها كأقلام الرصاص أيضا!

ثمة من يعانون من عقدة اللااستحقاق، وتلك نعمة لا تعادلها غير نعمة الجهل حسب ما يقول ابو الطيب... هذه العقدة تجعل المصاب بها يبرطع من الفرح اذا ظفر بحصة نملة واحدة من هذا العالم... وهناك شعراء ينشرون قصائدهم في مجلات تشبه الكشاكيل او الكتالوغات لا ينتبهون الى اعلان مجاور لنصوصهم عن سلعة ثمنها يعادل كل ما تقاضوه عن أعمالهم وجهودهم آلاف المرات، وكأن الثقافة جمهورية محررة من الاقتصاد، ومن نفوذه الحاسم الذي لا يتوقف عند مافيات الورق ولا عند تسعيرة المقال والقصيدة!

***

كلما حاولنا النأي عن هذه البؤرة، لنحلّق عاليا خارج جاذبية الواقع الجحيمي، تشدنا بقوة المرارات التي يتجرّعها ويجترها ضحايا التجهيل المبرمج، وايديولوجيا التهميش، وسعار الاستهلاك الأعمى!

وقد يكون من الاسهل علينا تدبيج آلاف الصفحات لاستعراض قصائد وقصص بلغة رائجة ومستعملة. لكن الثقافة ليست في نهاية المطاف تلالا من النصوص الصمّاء، وليست تجريدات هلامية، انها تفاصيل من لحم الواقع ودمه، ومن نخاع الكائنات التي بدأت تخسر مناعتها، وتهددها القطعنة بالتحول الى مسامير وقطع غيار متماثلة وبلا أسماء!

ويبدو ان المؤسسة الرسمية التي يناط بها تدجين الثقافة ودحر الوعي، أدركت بالخبرة أن اللسان الذي لا يشكمه اللجام قد يشكمه الماس او أي سائل آخر، فامتلأت الأفواه بما يحول دون النطق الا اذا كان ببغاويا وترديدا للصدى!

ونادرا ما يجد السادرون في هذه الغيبوبة من يوقظهم او يقرع الجرس بجوارهم، ليدركوا ان من فقد قرّاءه... والواثقين برؤاه مقابل الحصول على بطاقة عضوية في نادي السعادين الرسمي، عليه ان لا يشكو من الهجران ومن تراكم نسخ كتابه في مستودع الناشراو في غرفة نومه السرّية!

وهنا لا بد من التذكير بمفارقة المفارقات كلّها، وهي تتلخّص في أن من يزعمون بأنهم يكتبون بمعزل عن المتلقي ولا يعنيهم الآخر، يحلمون بالجوائز التي تمنح غالبا وفق معيار انتشاري ويقيمون الدنيا اذا باع احدهم مائة نسخة من كتاب صدر قبل عامين!

كيف نفهم الطلاق البائن؟ ولمن ننسب المسؤولية فيه، الى زوج استغرقته نشوة الغيبوبة ام الى زوجة تقضمها الوحشة؟

***

هل يمكن لوادي عبقر وجبل الأولمب، والشياطين الذكور الذين ألهموا علقمة الفحل والفرزدق، ان تبرر جهل الشاعر العربي في مطالع الالفية الثالثة باسباب فقره؟ واسباب عزوف الناس عن غنائه وبالتالي عن اسباب الهجران الذي يشكو منه؟

ان شاعرا يدير ظهره للتاريخ، ولا يعي من شروط زمانه غير حبٍ مُبْهَم، وعدمية مفرغة من نُبل التراجيديا، عليه ان يقبل بما انتهى اليه من هذيان، فالمرايا لا تصلح أبوابا بأية حال، والذات التي لا تتكثّف فيها وتتقطر خلاصات تاريخ برمته هي مجرد قطرة ماء ضلّت الطريق الى النّهر، وخسرت أبديتها في الدورة الكونية عبر متوالية الفصول!

وقد يكون الاندفاع الأرعن نحو هذه اللوغاريتمات اللغوية التي تجاهد من أجل إفراغ حمولة الكلمات من أية دلالات هو النقيض الفعلي للسوريالية، ومرادفاتها، بعكس ما يعتقد قرّاء المترجمات المختزل